كلية الآداب واللغات

قسم الفنون

السنة الثانية فنون درامية/ السداسي الرابع

مقياس: مسرح مقارن

المحاضرة رقم 01 بعنوان:
"ماذا عن الأدب المقارن!"

كلما اتجهت الأنظار نحو عالمية الأدب والثقافة الإنسانية أو ما يسمى بـ'حوار الحضارات والتفاعل بين الهويات الثقافية المختلفة'، كلما برزت أهمية الأدب المقارن باعتباره جسرا من جسور ذلك التفاعل.

كان لوجود الشعر اليوناني وتنوعه وتفرده، كل نوع بخصائص تميزه ومواقف تلائمه سابقا على تنظيم أرسطو له في كتاب فن الشعر، فكان لظاهرة تأثر الآداب فيما بينها ظاهرة قديمة تستوي في ذلك القديمة والحديثة، الشرقية والغربية، فالأدب الروماني تأثر كثيرا بالأدب الإغريقي في أعقاب غزو الرومان لأثينا عام 146 قبل الميلاد، ومع أن روما قد هزمت أثينا عسكريا في هذه الفترة، فإن أثينا قد انتصرت عليها ثقافيا وأصبحت المحاكاة الرومانية للإغريق طابعا مميزا، بل إن هذه المحاكاة انتقلت بدورها من خلال الأدب الروماني- اللاتيني إلى الآداب الأوروبية الكلاسيكية التي حرصت بدورها على أن تبدأ عصر الإحياء بمحاكاة النماذج القديمة عند اللاتينيين والإغريق واعتبار أن الجمال المطلق في التعبير والتفكير لا يوجد إلا عند هؤلاء القدماء.

ولعل من أبرز مظاهر التأثر والتأثير بين الآداب، ما كان من تأثير أدباء اليونان وثقافتهم وفلسفتهم من الرومان القدماء، فالتاريخ يشهد بأنه لم يكن للأدب اللاتيني من أصالة تذكر، وظل كذلك حتى امتزج بالفكر اليوناني أدبا وفلسفة، ومن هنا جاءت دعوة الشاعر الروماني هوراس في قوله: اتبعوا أمثلة الاغريق، واعكفوا على دراستها ليلا، واعكفوا على دراستها نهارا.

وبالتالي وجود الظاهرة يسبق اكتشافها والاعتراف بها ودراستها، ومن ثم فقد كان وجود التأثير والتأثر بين أدبين مختلفين أو أكثر سابقا على وجود العلم الذي يدرس هذه الظاهرة، وهو علم 'الأدب المقارن' فلم تكن الظروف التاريخية تساعد على قيام هذا اللون من الدراسات قبل العصور الحديثة.

وعليه، ساهمت فلسفة الجمال هي أيضا بقدر ممكن في تحديد منطلقات الأدب المقارن في ق 17 في أوروبا ومطلع ق 18، انطلاقا من فكرة الفيلسوف 'بوسBOS ' من خلال النظرية النسبية في الجمال وهي التي تنادي بأنه لا يوجد نموذج محدد للجمال، وإنما توجد أشكال متعددة، وهي ترتبط بمناخات متعددة وشعوب متعددة وأزمنة ولغات متعددة، وإذا كان ق18 قد مهد الطريق فلسفيا وأدبيا للدراسات المقارنة، فإن ق 19 أصبح مبدأ ولدت فيه فكرة الأدب المقارن انطلاقا من بروز الحركة الرومانسية في الأدب، فقامت على أساس الإبداع والتنظير، وكانت من خلال ذلك تعين على اتصال الآداب فيما بينها، وتمهد لقيام الدراسات المقارنة بين بعضها البعض الآخر، وإذا كانت هذه الحركة بروحها العام قد ساعد على قيام الأدب المقارن، فإن بعض مفكريها قد كان لهم باع في هذا المجال أمثال:

- مدام دي ستايل، التي ضبطت العلاقة بين الأدبين الفرنسي والألماني وإقامتها في سويسرا التي هي ملتقى حي للغتين من أن تعقد جسرا بينهما، مع إمكانية استفادة كل شعب من أفكار الشعوب الأخرى، وفي هذا تقول المفكرة والناقدة مدام دي ستايل: إن الأمم ينبغي أن تستهدي كل واحدة منها بالأخرى، من الخطأ الفاحش أن تبتعد أمة عن مصدر ضوء يمكن أن تستعيره، إن هناك أشياء شديدة الخصوصية يفترق بها كل شعب عن الآخر: المناخ، الإطار الطبيعي، اللغة، نظام الحكم، ثم على نحو خاص حركة التاريخ الخاصة بكل شعب...' عن كتاب De l'Allemagne سنة 1810.
- وبخصوص المنظر سانت بيف، فقد اقتصرت دراساته المقارنة انطلاقا من بحثه في العلوم التجريبية ومحاولته استخلاص مبادئ منها تصلح منهجا للبحث في النقد الأدبي، فيتحول على أساس

منها إلى علم موضوعي، بينما كانت نظريته 'الفصائل والأنواع' من بين الاتجاهات العلمية التي ازدهرت في تلك الفترة.

- بينما يرى في جانب آخر المؤرخ الأدبي هيبوليت تن، وجوب محاولة قيام تاريخ للأدب على أساس موضوعي، تفسر فيه الظواهر الأدبية من خلال ارتباطها بظواهر كونية وخصائص بشرية، مثل خصائص السلالات البشرية (الجنس) والخصائص المكانية التي يعيش فيها شعب من الشعوب (البيئة) ثم الإطار الزمني الذي يتم فيه حدوث لون ما من الإنتاج الأدبي (العصر)، كل هذا يأتي لكونه تجديدا في مناهج دراسة تاريخ الأدب، ومن ثم دعوة إلى توسيع مجال دراسة هذا التاريخ وتخطيه لحدود الآداب الإقليمية للبحث عن الظروف الخاصة بكل جنس في الآداب العالمية، وذلك يتطلب بالضرورة تتبع حركة انتقال هذه الأجناس بين الآداب المختلفة لتكون من بين الدراسات التي تدخل في صميم الأدب المقارن.

يقول محمد غنيمي في تعريفه لهذا النوع الأدبي:

يدرس هذا النوع مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصلاتها الكثيرة المعقدة، في حاضرها أو في ماضيها، ما لهذه الصلاة التاريخية من تأثير وتأثر، أيا كانت مظاهر هذا التأثير والتأثر، سواء تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبية أو التيارات الفكرية، أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكي في الأدب، أو كانت تمس مسائل الصياغة الفنية والأفكار الجزئية في العمل الأدبي، أو كانت خاصة بصور البلاد المتلفة كما تنعكس في آداب الأمم الأخرى، بوصفها صلات فنية تربط ما بين الشعوب والدول بروابط إنسانية تختلف باختلاف الصور والكتاب، ثم ما يمت إلى ذلك بصلة من عوامل الاثير والاثر في أدب الرحلة من الكتاب.

وبالتالي ما يفهم من القصد، هو اختلاط أدبين أحدها مكتوب في لغته القومية والآخر مكتوب بلغة أجنبية، ثم لبحث في آثار هذا الاختلاط من تفاعل بين الأدبين، وما نتج عنه من أخذ وعطاء، سواء على المستوى الإبداعي أو الابتكاري الفني أو على مستوى النقد الأدبي، وهذا يتحقق عبر:

_ تتبع لطبيعة سير الآداب العالمية واكتشاف الحقائق الفنية والإنسانية في هذه الآداب.

_ النظر في مدى التعاون والتأثر الذي تم أو تحقق من خلال انتقال أدب إلى أدب آخر، ثم الكشف عن

مظاهر التجديد وطبيعته وعلامات هذا كله من الآثار الأدبية المستفيدة من هذا التأثر، ثم المقارنة بين هذه الاتجاهات الجديدة في الأدب القومي وبينهما في الآداب العلمية الأخرى.

وعليه، يكمن المهام التي يمكن أن يضطلع بها الأدب المقارن في مجالات عدة، وهي على النحو التالي:

1. الحوار، يمكن للأدب المقارن أن يمثل جسرا للحوار بين الثقافات المختلفة من خلال إيجاد مواطن التأثير والتأثر بين النصوص الإبداعية لتلك الثقافات، وتشخيص نقاط الاختلاف والائتلاف بين الأنظمة الثقافية والأدبية المختلفة.

2. التركيز على البعد الإنساني للأدب، وذلك من خلال ابراز التقارب بين الغايات القصوى التي ترمي إليها الآداب القومية المختلفة، والتي قد تتباين من حيث وسائل التعبير واللغة، بينما تتآلف من حيث الغاية.

3. الترجمة، إذ تعد عملية بحث دائم عن الجوانب اللغوية بين لغتين أو أكثر لتحديد الارتباطات اللغوية بين النتاجات المختلفة، كما يمكن للترجمة أن تجد الأواصر المشتركة بين اللغات المختلفة التي قد تبدو متباينة من حيث النطق وقواعد اللغة، لكنها تشترك في تجسيد الخلات النفسية والاجتماعية التي تنبع من أحاسيس ومشاعر إنسانية مشتركة.

4. التكافؤ الثقافي، وهي خلق حالة من التوازن والتكافؤ بين الآداب والثقافات المختلفة.

ولما كان للأدب المقارن تلك الأهمية كان طبيعيا ألا يتصدى أي أحد للدراسات المقارنة، وكان على المقارن أن يستعين بمجموعة من الأدوات أو الدراسات التي تعينه على فهم وإدراك واتجاهات هذا النوع من الأدب:

1. أن يكون الباحث على علم بحصيلة واسعة من الدراسات التاريخية فهذه الدراسة تعينه على فهم الأحداث وتطورها، كما تمكنه من اخلال الإنتاج الأدبي محله من الحوادث التاريخية التي تؤثر في توجيهه.

2. يلزم على الباحث أن يحيط إحاطة واسعة بتاريخ مختلف الآداب التي هو بسبيل البحث فيها، ويكفيه أن يبحث في عصر معين من عصور التاريخ الأدبي تاركا لغيره بقية العصور.

3. يجب أن يكون الباحث على معرفة باللغات المختلفة حتى يتمكن من قراءة النصوص المختلفة بلغاتها الأصلية، إذ أن لكل لغة خصائص وروحا لا تفهم إلا فيها ولا تتذوق إلا بقراءة نصوصها.

4. يجب على الباحث أن يعرف أهم المراجع العامة حتى يمكنه من معرفة الأعمال الأدبية التي تساعده في لون ما من الألوان، مما وجب عليه الاسترشاد بآراء المتخصصين والاستعانة بهم.

5. ينبغي أن يكن الباحث ملما إلماما كبيرا بعدد الآثار الأدبية الكبرى في العالم كالإلياذة والأوديسة والكوميديا الإلهية ومسرحيات شكسبير وغيرها.

6. وجب على الباحث أن يتمتع بروح السفر والرحلات التي تساعد على إدراك المزاج الشخصي لشعب من الشعوب والعادات والميول، التي تتحكم في تفكيره واتجاهه فتجعله فنا من فنون الأدب، لأن الاتصال بالشعوب يفتح آفاقا رحبة للفهم.

المكتبة البيبليوغرافية:

- في الأدب المقارن، مباحث واجتهادات: إبراهيم عوض
- الأدب العام والمقارن: دانييل-هنري باجو
- دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن: محمد زكي العشماوي
- المعجم المسرحي: ماري إلياس وحنان قصب